



لا أعظم ولا أجل من موت في سبيل ما تؤمن. بهذا خط جميع العظماء بصمتهم. ومن خلاله خُلدو في سجل الخالدين. لا مكان لزهران في وجдан المتطرفين، فهؤلاء فقدوا وجدانهم، ولا مكان له في قواميس الثورات المؤسطرة، تلك التي تكتب دون أن تصنع.

عاش زهران سنواته الأخيرة، وقد حملناه جميع أخطائنا. انتقدناه، وكان يجب أن ننتقده، لكنه لم يكفرنا كما هو حال الدواعش والغلاة، ولم يقصينا كما فعل المتشبّهون بالليبرالية واللائκية المتطرفة، واليسار الرث.

لم يكن زهران أنموذجاً ثوريًا يحتذى بمفاهيمنا، فهو لم يفكر أو يهتم بذلك إلا في السنة الأخيرة. تفهمنا أكثر مما تفهمناه، قرأ خربشاتنا المعيارية القاسية، وكان من البراغماتية أن تخلى عن أيديولوجية شاملة أقل فائدة لها أنها تهون مorte ورفاقه في سبيل الثورة.

كان ديكاتوريًا بنظرنا وقادًّا استثنائيًّا بنظر رفاقه. ثورته لا تشبه ثورتنا المتخلية، لكنه هدب ثورة الريف والأطراف والتي لا تعبّر عن نفسها عندما تتسلّح إلا بالانتقام، وأطّرها في مقاومة مسلحة منظمة صمدت في وجه الاحتلالين والدعاوشن.

على زهران مآخذ عدّة، ولكنها لا تقارن بـمآخذنا على أنفسنا، وعلى القاعدين، والمنظرين والمفكرين، على الأقل ما استطعنا العيش ساعات في حصار عاشه سنوات ثلاثة. قصف دمشق، وفي هذا خطأ.

نظروا إليه كأمير حرب "إسلامي" مع أن صرحته كانت أقل عنفاً من صرخة جيفارا المؤسطر ضد التفاوت الطبقي، وانهازية البرجوازية الطفifieة.

ولم يشفع له أنه وحده، ودون غيره، أنقذ دمشق من غزو داعشي كان وشيكاً في لحظة من اللحظات. ضيق على الناشطين واتهم باختطاف بعضهم، وفي هذا خطأ وإن ثبت، لكنه مؤسس العمل العسكري، وحد، بالقوة، من ظاهرة تكاثر الكتائب والسمسيات.

لم يكن القضاء الموحد أنموذجاً المعياري لدولة العدل والحق، لكنه أفضل الموجود. أضف إلى ذلك، أن علوش وجشه كان الأقل تقليداً للدعم مقارنة بفصائل الشمال الكبرى، أو الجبهة الجنوبية بل مقارنة بجبهة النصرة، ومنظريها الذين طالما زاودوا عليه، واتهموه بالعملاء.

تعرض الجيش وعلوش لحملة إعلامية ضده، شاركت فيها وسائل وقنوات تلفزيونية عدّة من ضمنها تلك المؤيدة للثورة. ضمن معرفتي المحدودة، لم يحصل جيش الإسلام في الأشهر السبعة الأخيرة على أكثر من 5 مليون دولار، وهو مبلغ زهيد لا يغطي لأسباب عديدة حاجيات الغوطة عسكرياً، وتنموياً.

من منظور ثورة الأطراف والريف، وسطوة الجهاديين كان جيش الإسلام النموذج الأقرب لثورتنا وأهدافها، تصالح مع علم الثورة ورأيتها، ولم يمانع يوماً في تغيير اسم الجيش إذا انتفت الحاجة للتبعية الأيديولوجية الالزمة للقتال والسلاح.

الديمقراطية التي كانت تحت قدميه قبل فترة، أقر بها، ووقع على بيان يدعو لاعتراضها، وهذا ما طالبنا به، ولست معنباً هنا بالكشف على قلوب الأشخاص، ومدى إيمانهم بها، فالله وحده يعلم ما في القلوب.

لم نتردد في نقد زهران وقت حياته، وهذا واجبنا، ولن نتردد في رثائه وتخليله بطلاً وطنياً لا تقل رمزيته عن الخراط، وسائر المقاومين في سبيل الاستقلال والتحرير.

لم أسمع يوماً فلسطينياً تشفى بمقتل الشيخ أحمد ياسين ولا الرنتيسي ولا أحد من قادة حماس والمقاومة، لكن تشفى البعض باستشهاد علوش فيه من السقوط الأخلاقي ما لا يمكن تداركه.

وأخيراً، بنى زهران علوش تنظيماً مسلحاً يعتمد المؤسساتية، والتراطبية العسكرية والسياسية، وربطه بمرجعية سياسية وقضائية.

لذلك، وإن تخبط جيش الإسلام في المدى المنظور نتيجة فقدان كاريزما علوش، فإن ما بناه الشيخ سيبقى راسخاً، وسيستمر الجيش في مقاومته وجهاده بشكل أقوى مستنداً إلى تضحيات مقاتليه، وقادته، وسيكون مقتله مقتلة لقاتلاته مهما اشتدت التوابع، وتحزب المتحزبون ضد الثورة والشعب السوري.

رحم الله الشهيد زهران علوش وأسكنه في عليين..

المصادر: